المقتطف

الجزء الثامن من المجلد الثامن والعشرين

١ اغسطس (آب) سنة ١٩٠٣ — الموافق ٧ جماد اول سنة ١٣٢١

البابا ليون الثالث عشر

لا يسع مؤرخ القرن التاسع عشر الاَّ ان يعقد فصلاً طويلاً للبابا ليون الثالث عشر واعماله العمومية في الربع الاخير من هذا القرن ولو تجنَّب كل بحث ديني في تاريخه لان اعمال

هذا الحبر العظيم احلَّتهُ ارفع محل بين رؤساء الاديان المهتمين بمصالح العباد الدينيَّة والدنيويَّة

وهو من اسرة ايطالية كريمة النسب ولد في الثاني من شهر مارس سنة ١٨١٠ وكان يفتخر بنسبهِ واهتم في حداثتهِ بجمع شجرة عائلتهِ . وُضع في مدرسة اليسوعيين بقتربو وعمرهُ ثماني سنوات ثم نقل الى مدرستهم في رومية (كولاجيو رومانو) وكان كثير الدرس بالغ الاجتهاد فنال رتبة الدكتورية وعمرهُ اثنتان وعشرون سنة . واتجهت اليهِ الانظار وبدت همتهُ وغيرتهُ على مصلحة الجمهور في تخليص دولية بنيفنتو من عبث اللصوص . وارتقى في المناصب الكهنوتية حتى سيم اسقفًا لمدينة دمياط (بالاسم) وارسل الى بلاد البلجيك " قاصدًا " رسوليًّا ولم يكن يعرف كلمة من اللغة الفرنسويَّة حينئذٍ فعكف على درسها ولم يصل الى بلجيكا الَّا وقد صار يعرف من هذه اللغة ما يكفي للتكلُّم بها واقام في بركسل ثلاث سنوات درس فيها مبادئ حكومتها الدستوريَّة وكان يديرها ليوبولد الاول اعقل ملوك اوربا وهي على ضد ما كان جاريًا في المدن الايطالية حينئذٍ . ويقال ان ذلك اثَّر في نفسهِ وفي توجيه افكارهِ وظهرت نتيجتهُ فيهِ لما رقي الى السدَّة البابوية . الَّا ان احد عارفيهِ وهو الوزير رتازي الايطالي قرين كافور قال عنهُ ما يدلُّ على ان ما بدا منهُ كان خلقيًّا غير مكتسب ففي كتاب بعث بهِ الى زوجتهِ يقول " تكلمتُ كثيرًا منذ مدة عن الكردينال بتشي (وهو اسم عائلة البابا لاون الثالث عشر) مع الملك ليوبولد احكم ملوك اوربا واشدهم فراسة وكان قد عاشرهُ ودرس اطوارهُ لما كان قاصدًا رسوليًّا في بلجيكا وعنده انهُ لا يتساهل الَّا في الامور اللطيفة وتساهلهُ يكون في العرض لا في الجوهر مع ما هو متَّصف بهِ من سمو العقل والاستقامة التامَّة والاحترام الجزيل للسلطة المدنية . ويكون اشدَّ خضوعًا من سائر الاساقفة لما تقضي بهِ العناية ولكن تعلُّقهُ بالسدَّة البابوية بالغ الدرجة القصوى والمبادئ التي يجري عليها ثابتة في نفسهِ لا تتغير وهو شديد العزيمة لا يحول عن امر عقدنيتهُ عليهِ . وحقًّا انهُ من الرؤساء الذين يضطرُّ المرء ان يحترمهم ويحب بهم "

ونقل من بلجيكا وجعل اسقفًا لبروجيا ثم جعل كردينالاً سنة ١٨٥٣ ولكن لم يُشترك في تدبير امور الكنيسة الَّا بعد اربع وعشرين سنة تقضي هذه المدة في تدبير امور رعيتهِ على مقتضى طرق الاصلاح الحديثة فانشأ بيوت الايتام ومستشفيات المرضى وملاجئ المنقطعين واتاها بالمدبرين من بلاد البلجيك واصلح سكك البلاد ورمم الكنيسة الكبرى وبنى ٣٦ كنيسة جديدة . اما العمل الذي اهتمَّ بهِ اكثر من غيرهِ فهو نشر التعليم الابتدائي والثانوي والعالي وتعليم خدمة الدين العلوم الدنيوية . وكان وهو في بلجيكا قد شارك اهل النهضة الكاثوليكية

الحديثة التي نشأت في مونخ حاسبًا ان الخطر الذي تخشاه الكنيسة من العلوم الحديثة والافكار الجديدة لايدفعهُ الاَّ اناس يعرفون العلوم الدينيَّة والعلوم الدنيوية معًا. وحثَّ على تعليم خدَمة الدين علم الفسيولوجيا والكيمياء والجيولوجيا وما اشبه من العلوم الطبيعيَّة وكذلك التاريخ السياسي وحوادث الايام. ثم توسَّع في هذه الآراء لما رقي الى السدَّة البابوية ونشر منشوراته المختلفة فان مدارها على حاجة الكنيسة السياسيَّة والاجتماعية وعلى الاتفاق بين تعاليمها والتقدُّم العقلي والادبي. وكان يحسب ان الزمان خير مصلح وما لا يتمُّ في عصره من الاصلاح المطلوب يتمّ في عصر خلفائهِ. ولم يسلم بحق الحكومة الايطالية في نزع السلطة المدنية من يد الباباوات ولكن حكمتهُ واعتدالهُ احلاَّهُ محلاً رفيعًا في عيون رجال السياسة الايطاليين

وتوفي الكردينال انطونلي سنة ١٨٧٦ وكان بمثابة وزير الداخلية في الفاتيكان فدعاهُ البابا بيوس التاسع الى رومية وجعلهُ مديرًا للخزينة البابوية خلفًا عن الكردينال انجلس لان الكردينال انطونلي كان يعرف قدرهُ ويحسبهُ مناظرًا لهُ على ما يقال فابقاهُ بعيدًا عن رومية. وتوفي البابا بيوس التاسع في ٧ فبراير سنة ١٨٧٨ واجتمع مجمع الكرادلة في ١٨ منهُ وكان فيهِ ٦٢ كردينالاً ووقع الانتخاب عليهِ في الاجتماع الثاني فانتخب باربعة واربعين صوتًا

علاقتهُ الخارجية

مع ايطاليا — جرى على سياسة سلفهِ في حسبانهِ الحكومة الايطالية مغتصبة لحقوق الكرسي البابوي لكنهُ لم ينفك عن حسبان الايطاليين اولادًا للكنيسة فلما دارت الدائرة على جنودهم في بلاد الحبشة وأُسر كثيرون منهم اوفد وفدًا خصوصيًّا الى الملك منلك لينسى في نجاتهم من الاسر لكنهُ فعل ذلك من باب ديني محض لا من باب سياسي

مع المانيا — لقد اجتهد في تمكين علاقات الكنيسة الكاثوليكية مع كل حكومات العالم ما عدا الحكومة الايطاليَّة وكتب يوم انتخابهِ الى امبراطور المانيا وقيصر روسيا ورئيس جمهورية سويسرا يخبرهم بذلك ويطلب منهم الرفق بالكاثوليك القاطنين في بلدانهم. وكانت الحرب الدينية مستعرة في المانيا حينئذٍ لكن الحكومة الالمانية كانت قد ملَّتها لا سيما وان بسمارك كان قد اخذ في مناضلة الاشتراكيين وودَّ ان تكون لهُ اصوات الكاثوليك في مجلس النوَّاب ففازت رومية ولبى بسمارك مطالبها. وحكَّمت المانيا قداستهُ في الخلاف الذي كان بينها وبين اسبانيا فسرَّ بذلك وأبى ان يتخذ منزلة الحكَم لكنهُ امعن نظرهُ في الخلاف الذي بينهما حليًّا وعرض عليهما حلاًّ ارضاهما وزارهُ امبراطور المانيا الحالي سنة ١٨٨٨ ثم زارهُ ثانية سنة ١٨٩٣ هو وزوجتهُ وقامت المانيا مقام الحامي للكاثوليك من الالمان في الشرق فلم يعترض على

ذلك ولا ايدهُ رسميًّا لئلاَّ يغيظ فرنسا التي كانت تُحسَب دائمًا حامية الكاثوليك في الشرق. وقد كسبت رومية في المانيا قدر ما خسرتهُ في فرنسا او اكثر

مع فرنسا — لقد ابت الحكومة الفرنسوية كل ما امكنها ابداؤهُ من دلائل الاستقلال عن رومية والمخالفة لها واعترض البابا على ذلك شديد الاعتراض لكنهُ حضَّ الكاثوليك على وجوب طاعة الحكومة لان ذلك اساس الراحة والامن وصرَّح علانية ان الحكومة الجمهورية هي الحكومة التي اختارها الفرنسويون لانفسهم فطاعتها واجبة عليهم لكن الحزب الاكليريكي قويٌّ في فرنسا وغير راضٍ عن الحكومة الحاضرة ولولا شدَّة رغبة رومية في مسالمة الجمهورية الفرنسوية لما صبرت على ما يصيب هذا الحزب من الضيم ولو لا صبرها لكانت العاقبة اوخم

مع انكلترا — كان يكرم المرحومة ملكة الانكليز شديد الاكرام ويحبب بياسها وكانت هي تحترمهُ وتجلُّ مقامهُ . واتفق ان قام في بلاد الانكليز في هذه الاثناء رجلان عظيمان من افضل رجال المذهب الكاثوليكي وهما الكردينال نيومن والكردينال منغ فسيرة هذين الفاضلين وكتاباتهما وسعي الراهبات في اعمال الرحمة واتساع ابواب المعاشرة والمخالطة كل ذلك ساعد على ازالة التنور القديم المتحكم بين البروتستانت والكاثوليك وتطرَّف بعض قسوس البروتستانت وطلبوا ان يجروا في رسوم كنيستهم على مثال كنيسة رومية حتى حسب البابا ان اتحاد الكنيسة الانكليزية بالكنيسة الرومانية امرٌ قريب او ممكن وحثَّ رؤساء الكنيسة الانكليزية على هذا الاتحاد ولكنهُ طلب مطالب يستحيل ان يقبلوا بها ولو لا ذلك ما كان هذا الاتحاد مستحيلاً

مع النمسا — اما علاقتهُ مع حكومة النمسا والمجر فيقال انها لم تكن على تمام المسالمة لكن الواقفين على تفاصيل الامور يقولون انهُ لم يكن في امكانهِ ان يجري معها على غير ما جرى عليهِ وكانت علاقتهُ مع امبراطور النمسا والمجر على تمام المودة والصفاء لان الامبراطور من اتقى الناس واشدهم تمسكًا بالسدَّة البابوية وقد امتنع عن رد الزيارة لملك ايطاليا في رومية لكي لا يغيظ قداستهُ

مع روسيا — كانت العلاقات السياسية مع روسيا قد انقطعت في عهد البابا بيوس التاسع فما ارقى البابا ليون الثالث عشر الى السدَّة البابوية كان اول شيء فعلهُ انهُ كتب بيدهِ كتابًا الى قيصر الروس يعلمهُ بذلك وكتب اليهِ ايضًا يهنئهُ بالنجاة من مكايد النهلست سنة ١٨٧٩ و١٨٨٠ تساهلت روسيا كثيرًا في تعيين الاساقفة للكاثوليك من رعاياها واحسنت معاملتهم وردت اسقف ورسو من منفاه في سيبيريا . وبعث البابا منشورًا الى

اساقفة بولندا سنة ١٨٩٤ اوجب فيهِ عليهم " ان يبذلوا الجهد حتى تأصل في نفوس الكهنة والرعية مبادئ الاحترام لاهل المناصب والخضوع للشرائع والقوانين" وبعث سفيراً خصوصيًّا الى موسكو سنة ١٨٩٦ لحضور الاحتفال بتتويج القيصر الحالي وكان اول ناصريهِ في المؤتمر الذي عقد لمنع الحرب او لتقليل المعدات الحربية

هذا ومما تذكرهُ لهُ المجلات العلمية بالشكر انهُ فتح ابواب مكتبة الفاتيكان لكل طلبة العلم من كل الامم والمذاهب من غير تمييز وابتاع كتب قصر البرغازي واضافها الى مكتبة الفاتيكان وامر بان ينتقى من كتب المراجعة (كالقواميس ودوائر المعارف) ثلاثون الف كتاب توضع وحدها تسهيلاً لمراجعتها . وصُورت التوراة المعروفة بالنسخة الفاتيكانية وطُبعت ونشرت . واضيفت الآلات اللازمة الى مرصد الفاتيكان وسلّمت ادارتهُ الى فلكي ماهر .

وكانت وفاتهُ في التاسع عشر من شهر يوليو الساعة الرابعة بعد الظهر على اثر اعتلال طويل

اقتسام المسكونة

قام الفاتحون في سالف العهد ودوّخوا الممالك فغنموا اموالها وسبوا سكانها او ضموها الى بلادهم فساسوها وجبوا منها الخراج وعبّأوا الجنود . كذا فعل ملوك مصر وبابل واشور واقتفى خطواتهم ملوك اليونان والرومان ثم خلفاؤه العرب ولا تزال هذه المناظرة بين الشرق والغرب ولكن اهالي الغرب اي اهالي اوربا ونسلهم في اميركا قد حملوا على الشرق حملة عنيفة في السنين الاخيرة فامتلكوا افريقية كلها ما عدا مراكش والحبشة وطرابلس الغرب وكادت مصر تعدُّ من املاكهم لان لهم فيها السلطة التامة . وخرجت انكلترا من هذه المعمعة بثلاثة ملايين من الاميال المربعة ما عدا مصر والسودان . وفرنسا باربعة ملايين ميل . وكلٌّ من المانيا وبلجكا بمليون ميل واسبانيا والبرتغال بمليون ميل وايطاليا باكثر من نصف مليون . لكن ليس العبرة باتساع البلاد بل بما فيها من السكان والخيرات ولذلك فنصيب انكلترا من افريقية اكبر من نصيب غيرها وادهم

وفي اسيا وجزائرها سبعة عشر مليونًا من الاميال المربعة وقد كان النصيب الاوفر منها لروسيا كأنها ارادت ان تجبر ما نقصها في افريقية فنشرت لواءها على سبعة ملايين من الاميال المربعة . واكتفت انكلترا بمليونين ولكنهما من اغنى الاراضي واكثرها سكانًا . واخذت هولندا ٧٤ الف ميل وفي ايضاً بلاد غنية كثيرة السكان . وغنمت فرنسا واميركا بلادًا صغيرة .